إِقَامَةُ الصَّلَاةِ مِفْتَاحُ النَّصْرِ

أبو زيد العتيبي —عفا الله عنه- .



سِلْسِلَةُ مَقَالِ الْخَطِيْبِ: (٣٣)

إِقَامَةُ الصَّلَاةِ مِفْتَاحُ النَّصْرِ

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يُوْنِسُ: ٨٧].

وَيَلِيهِ مُلْحَقُ: مَشَاهِدِ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ

كَتَبَهُ: أَبُو زَيْدٍ الْعُتَيْبِيُّ –عَفَا اللهُ عَنْهُ–

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ للّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِيْنُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

[آلُ عِمْرَانَ: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[النِّسَاءُ: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

[الأَحْزَابُ: ٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيْثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ.

اعْلَمُوا –رَحِمَكُمُ اللهُ– أَنَّ هِمَّةَ الدَّاعِيَةِ بَلِ الْمُسْلِمِ تَنْصَرِفُ فِي هَذِهِ النَّوَازِلِ الْعَظِيْمَةِ إِلَى عَدَدٍ مِنَ الْمَطَالِبِ الرَّفِيْعَةِ الوَاجِبَةِ، وَمِنْهَا:

١– التَّوْبَةُ وَالاسْتِغْفَارُ.

٢– التَّضَرُّعُ وَالدُّعَاءُ.

٣– الصَّبْرُ وَالاحْتِسَابُ.

٤– الْمَعُونَةُ لإِخْوَانِهِ، وَمِنْ أَعْظَمِ مَقَاصِدِهَا:

(سَدُّ حَاجَتِهِمْ، وَتَذْكِيْرُهُمْ، وَتَثْبِيْتُهُمْ، وَتَبْشِيْرُهُمْ، وَتَسْلِيَتُهُمْ).

وَمَنْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ مُنَازَعَةً فِي تَحْقِيْقِ هَذِهِ الْمَطَالِبِ وَنَحْوِهَا؛ فَعَلَيْهِ (بِإِقَامَةِ الصَّلاةِ) فَهِيَ مِفْتَاحُ النَّصْرِ وَالتَّمْكِيْنِ. قَالَ –تَعَالَى–

: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٨٧].

وَإِلَيْك الْمَقَالَ رَقْمَ: (٣٣) مِنْ سِلْسِلَةِ مَقَالِ الْخَطِيْبِ، تَحْتَ عُنْوَانِ: (إِقَامَةُ الصَّلَاةِ مِفْتَاحُ النَّصْرِ).

فَهِيَ مِنْ الْحُلُولِ الْعَمَلِيَّةِ الْمَفْرُوضَةِ الَّتِي يَنْشُدُهَا الْمُصْلِحُونَ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِيْنَ، وَمَنْ تَابَعَهُمْ فِي طَرِيْقَةِ الإِصْلاحِ.

وَهِيَ فِي أُمَّةِ الإِسْلامِ النِّدَاءُ اليَّوْمِيُّ: (حَيَّ عَلَى الْفَلاحِ).

وَتَأَمَّلْ مَا فِي هَذَا النِّدَاءِ مِنَ الْمَعَانِي الْجَلِيْلَةِ؛ فَبَعْدَ الْحَثِّ عَلَى (الصَّلَاةِ) بِاسْمِهَا (حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ) مُكَرَّراً؛ لأَهَمِّيَتِهَا، وَلِتَوْكِيدِ وُجُوبِهَا.

كَرَّرَ النِّدَاءَ (بِثَمَرَةِ الصَّلَاةِ) وَهُوَ تَحْصِيلُ (الْفَلَاحِ) الَّذِي يَعْنِي الظَّفَرَ بِكُلِّ مَطْلُوبٍ فِيْهِ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ

(٢)﴾ [سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ].

وَهَذَا الْوَعْدُ —اقْتِرَانُ الْفَلاحِ بِالصَّلاةِ— مَزْبُورٌ فِي كُتُبِ الأَوَّلِيْنَ مِنْ

أُولِي الْعَزْمِ الْمُرْسَلِيْنَ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ

رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى

(١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى

(١٩)﴾ [سُورَةُ الأَعْلَى].

فَفَلاحُنَا، وَنَجَاتُنَا، وَسَعَادَتُنَا فِي (قُرَّةِ عَيْنِ نَبِيِّنَا) —صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ—.

إِنَّهَا الصَّلاةُ ...

إِلَيْهَا يَفْزَعُ الْمَنْكُوبُونَ، وَالْمُضْطَهَدُونَ، وَالْحَائِرُونَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)
وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ
(١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ
وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ
قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ
وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾ [سُوْرَةُ الْبَقَرَةِ].

اعْلَمُوا –رَحِمَكُمُ اللَّهُ– أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– جَعَلَ الْفَلاحَ قَرِيْناً لِلصَّلاةِ فِي شِعَارِ أَهْلِ الإِسْلامِ حَتَّى يَهْتَدِيَ حَائِرُهُمْ إِلَيْهَا مَهْمَا أَظْلَمَتْ الْفِتَنُ، وَمَهْمَا شُوِّشَ عَلَى صَوْتِ النَّاصِحِيْنَ؛ فَإِنَّ (حَيَّ عَلَى الْفَلاحِ) نِدَاءٌ مُدَوٍّ فِي سَمَاءِ بِلادِ الإِسْلامِ.

إِقَامَةُ الصَّلاةِ مِفْتَاحُ النَّصْرِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

الحَمْدُ للّهِ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللّهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ وَالاهُ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ اللّهَ —تَعَالَى— قَدْ أَوْدَعَ القُرْآنَ الكَرِيْمَ حِكَماً عَظِيْمَةً، وَأَحْكَاماً جَلِيْلَةً تَكُونُ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِيْنَ، وَلِعِبَادِهِ المُتَّقِيْنَ.

وَمِنْهَا بَيَانُ أَحْكَامِ المُسْتَضْعَفِيْنَ تَحْتَ تَسَلُّطِ الظَّالِمِيْنَ، وَالطُّغَاةِ الْمُتَجَبِّرِيْنَ، وَالعُتَاةِ الْمُتَكَبِّرِيْنَ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا بَيَّنَهُ اللّهُ —سُبْحَانَهُ— مِنْ حَالِ أُمَّةِ مُوسَى —عَلَيْهِ السَّلامُ— فَبَعْدَ أَنْ أَظْهَرَهُ اللّهُ بِالْحُجَّةِ القَاطِعَةِ عَلَى فِرْعَوْنَ الطَّاغِيَةِ، وَأَبْطَلَ كَيْدَ السَّحَرَةِ، وَآمَنُوا بِرَبِّ العَالَمِيْنَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ، وَآمَنَ مَعَ مُوسَى بَعْضُ الشَّبَابِ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ، كَمَا

قَالَ –تَعَالَى–: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ [يُونُس: ٨٣].

عِنْدَهَا تَرَكَ فِرْعَوْنُ لُغَةَ الْمُحَاجَجَةِ وَالْمُجَادَلَةِ، وَاسْتَعْمَلَ الْبَطْشَ وَالْقَتْلَ؛ فَقَتَلَ السَّحَرَةَ وَصَلَبَهُمْ، ثُمَّ جَهَّزَ جُيُوشَهُ لِقَتْلِ مُوسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ– وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ.

وَهُنَا بَرَزَتْ ثَلَاثَةُ مَشَاهِدَ؛

- الْمَشْهَدُ الأَوَّلُ: مَشْهَدُ الظَّلَمَةِ الْمُعْتَدِيْنَ الَّذِي تَمَثَّلَ فِي عُلُوِّ فِرْعَوْنَ وَإِسْرَافِهِ فِي الأَرْضِ، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يُوْنِسُ: ٨٣].
- وَالْمَشْهَدُ الثَّانِي: مَشْهَدُ الْمُعَلِّمِيْنَ وَالْمُوَجِّهِيْنَ وَالْمُرَبِّيْنَ فِي حَالِ تَعَدِّي الظَّالِمِيْنَ وَبَطْشِ الطُّغَاةِ وَالْمُسْرِفِيْنَ الَّذِي تَمَثَّلَ فِي خِطَابِ مُوْسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ– لِقَوْمِهِ بِتَعْلِيْقِهِمْ بِرَبِّ العَالَمِيْنَ، وَتَذْكِيْرِهِمْ بِالإِيْمَانِ بِهِ، وَالاعْتِمَادِ عَلَيْهِ وَحْدَهُ وَاللُّجُوْءِ لَهُ عِنْدَ

الشَّدَائِدِ، كَمَا قَالَ —تَعَالَى—: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يُوْنِس: ٨٤].

فَلا يَنْبَغِي لِلْمُعَلِّمِيْنَ وَالْمُرَبِّيْنَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأَحْوَالِ الإِغْرَاقُ فِي إِذَاعَةِ نَشَرَاتِ الأَخْبَارِ، أَوْ تَخَرُّصَاتِ الْمُحَلِّلِيْنَ وَالإِعْلامِيِّيْنَ.

وَلا يَنْبَغِي لَهُمْ تَعْلِيْقُ النَّاسِ بِالْحَمَاسَاتِ الْفَارِغَةِ، وَالْعَوَاطِفِ الْخَالِيَةِ مِنْ الإِيْمَانِ، وَلا يَجُوزُ لَهُمْ أَنْ يَزُجُّوا بِهِمْ فِي مَتَاهَاتٍ مُظْلِمَةٍ. بَلِ الْوَاجِبُ إِرْجَاعُهُمْ إِلَى اللهِ بِالتَّوْبَةِ وَالإِنَابَةِ.

- وَالْمَشْهَدُ الثَّالِثُ: مَشْهَدُ الأُمَّةِ الْمُسْتَضْعَفَةِ الَّتِي يَجِبُ عَلَيْهَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ الْعَمَلَ بِهَذَا التَّوْجِيْهِ النَّبَوِيِّ الَّذِي تَمَثَّلَ فِي قَوْمِ مُوْسَى —عَلَيْهِ السَّلامُ— حَيْثُ امْتَثَلُوا النَّصِيْحَةَ النَّبَوِيَّةَ: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يُوْنِس: ٨٥ – ٨٦].

فَلَمَّا فَعَلَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُعَلِّمِيْنَ، وَالْمُتَعَلِّمِيْنَ مَا يَلْزَمُهُ الْقِيَامَ بِهِ مِنْ وَاجِبِ الْوَقْتِ، وَسَلَكُوا الطَّرِيْقَ الْمُوصِلَ إِلَى النَّصْرِ، وَأَتَوا إِلَى الظَّفرِ مِنْ بَابِهِ الْمَشْرُوعِ جَاءَ التَّعْلِيْمُ الرَّبَانِيُّ الكَرِيْمُ مُبَيِّناً لَهُمْ أَنَّ كُلَّ بَابٍ لا يُفْتَحُ إِلا بِمِفْتَاحٍ، وَأَنَّ مِفْتَاحَ بَابِ النَّصْرِ هُوَ (إِقَامَةُ الصَّلاةِ)، فَقَالَ –تَعَالَى–: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يُوْنِسُ: ٨٧].

قَالَ ابْنُ كَثِيْرٍ –رَحِمَهُ اللهُ–: "لَمَّا اشْتَدَّ بِهِمْ الْبَلاءُ مِنْ قِبَلِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَضَيَّقُوا عَلَيْهِمْ، أُمِرُّوا بِكَثْرَةِ الصَّلاةِ، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [الْبَقَرَةُ: ١٥٦].

وَفِي الْحَدِيْثِ: "كَانَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى" (أَبُو دَاوُدَ، صَحِيْحُ الْجَامِعِ رَقَم: ٤٧٠٣).

وَلِهَذَا قَالَ –تَعَالَى– فِي هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: بِالثَّوَابِ وَالنَّصْرِ الْقَرِيْبِ".

(تَفْسِيْرُ القُرْآنِ العَظِيْمِ: ٤/٢٨٧).

فَالصَّلاةُ مِفْتَاحُ النَّصْرِ، وَهِيَ مَفْزَعُ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِيْنَ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْمُلِّمَاتِ، قَالَ الْعَيْنِي –رَحِمَهُ اللّهُ– إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى– "يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا: أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا نَزَلَ بِهِ أَمْرٌ يُهِمُّهُ، يُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يُصَلِّي"

(شَرْحُ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ: ٥/٢٢٦).

وَجَاءَ عَنْ مُصْعَب بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيْهِ أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّ لَهُ فَضْلاً عَلَى مَنْ دُوْنَهُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فَقَالَ نَبِيُّ اللّهِ –صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "إِنَّمَا يَنْصُرُ اللّهُ هَذِهِ الأُمَّةَ بِضَعِيْفِهَا بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلاتِهِمْ وَإِخْلاصِهِمْ" (النَّسَائِيُّ، صَحِيْحُ الْجَامِعِ رقم: ٢٣٨٨).

فَالبِشَارَةُ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ قَرِيْنَةُ إِقَامَةِ الصَّلاةِ؛ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فَلا نَصْرَ بِلا إِقَامَةِ الصَّلاةِ، وَلِهَذَا لَمَّا اسْتَعْجَلَ

بَعْضُهُمْ القِتَالَ قَبْلَ إِعْدَادِ مِفْتَاحِ النَّصْرِ بِالصُّورَةِ اللَّائِقَةِ مُنِعُوا مِنْهُ كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النِّسَاءُ: ٧٧].

وَمِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ الْمُحَافَظَةُ عَلَى أَوْقَاتِهَا وَالإِتْيَانُ بِشُرُوطِهَا وَأَرْكَانِهَا.

وَمِنْ إِقَامَتِهَا أَنْ يُصَلِّيْهَا الرِّجَالُ جَمَاعَةً فِي الْمَسَاجِدِ، كَمَا قَالَ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصُّفُوفِ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ".

(رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

فَمَنْ لَمْ يُسَوِ الصُّفُوفَ لَمْ يُقِمِ الصَّلَاةَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَمْ يَأْتِ إِلَى مَحَلِّ هَذِهِ الصُّفُوفِ، وَهِيَ الْمَسَاجِدُ.

وَفِي لَفْظِ الصَّحِيْحَيْنِ: "فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصُّفُوفِ مِنْ تَمَامِ الصَّلَاةِ".

قَالَ السَّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: "هَذَا نَصٌّ صَرِيْحٌ أَنَّ تَسْوِيَةَ الصُّفُوفِ مِنْ تَمَامِ الصَّلاةِ، وَهَذَا مِنْ فَوَائِدِ صَلاةِ الْجَمَاعَةِ"

(شَرْحُ عُمْدَةِ الأَحْكَامِ: ١/٢٣٧).

وَاعْلَمْ -وَفَّقَكَ اللهُ- أَنَّ إِقَامَةَ الصَّلاةِ وَكَثْرَةَ السُّجُودِ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ الَّتِي تُنَالُ بِهَا الأُمُورُ الْعَظِيْمَةُ، وَتُقْضَى بِهَا الْمَهَامُّ الْجَسِيْمَةُ، وَتُدْرَكُ بِهَا الْمَطَالِبُ الْعَالِيَةُ، وَمِنْهَا:

١ - مَا سَبَقَ مِنْ أَنَّهَا مِفْتَاحُ النَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ وَالظُّهُورِ عَلَى الأَعْدَاءِ، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢ - وَمِنْهَا: أَنَّ مُرَافَقَةَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تُنَالُ بِطَلَبِهَا مَعَ كَثْرَةِ الصَّلاةِ، فَعَنْ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَبِيْعَةَ بْنَ كَعْبٍ الأَسْلَمِيَّ يَقُولُ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ -عَلَيْهِ السَّلامُ- آتِيْهِ بِوَضُوئِهِ وَبِحَاجَتِهِ، فَقَالَ: "سَلْنِي!"، فَقُلْتُ: مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: "أَوَ غَيْرَ ذَلِكَ؟" قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ: " فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ" (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

٣ – وَمِنْهَا: أَنَّ الصَّلاةَ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُعِيْنُ عَلَى إِزَالَةِ الْهُمُومِ وَالغُمُومِ وَالأَحْزَانِ الَّتِي تُصِيْبُ الْعَبْدَ مِنْ أَعْدَائِهِ، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الْحِجْرُ: ٩٧-٩٨].

قَالَ السَّعْدِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ–: "أَيْ: أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ اللّهِ وَتَسْبِيْحِهِ وَتَحْمِيْدِهِ وَالصَّلاةِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُوَسِّعُ الصَّدْرَ وَيَشْرَحُهُ وَيُعِيْنُكَ عَلَى أُمُورِكَ" (تَيْسِيْرُ الْكَرِيْمِ الرَّحْمَنِ: ص/ ٤٣٥).

وَقَالَ الشَّنْقِيْطِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ–: "فَرَتَّبَ عَلَى ضِيْقِ صَدْرِهِ بِمَا يَقُولُونَ –بِالْفَاءِ– قَوْلَهُ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ عَرَفْنَا أَنَّ هَذَا التَّسْبِيْحَ وَالصَّلاةَ وَالإِنَابَةَ إِلَى اللَّهِ هُوَ دَوَاءُ ذَلِكَ الْحُزْنِ وَالأَذَى الَّذِي يَنَالُهُ مِنْهُمْ" (الْعَذْبُ الْمُنِيْرُ: ١/١٧٧).

٤ – وَمِنْهَا: أَنَّ الصَّلاَةَ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ الَّتِي تُنْجِي الْعَبْدَ مِنَ الْفِتَنِ وَالشَّرِّ وَالبَلاءِ وَالْمَصَائِبِ، فَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَتْ: "اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لَيْلَةً فَزِعًا يَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْخَزَائِنِ وَمَاذَا أُنْزِلَ مِنْ الْفِتَنِ مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ يُرِيدُ أَزْوَاجَهُ لِكَيْ يُصَلِّينَ رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ " (الْبُخَارِيُّ).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ –رَحِمَهُ اللَّهُ–: " وَفِي الْحَدِيثِ النَّدْبُ إِلَى الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ عِنْدَ نُزُولِ الْفِتْنَةِ وَلَا سِيَّمَا فِي اللَّيْلِ لِرَجَاءِ وَقْتِ الْإِجَابَةِ لِتُكْشَفَ أَوْ يَسْلَمَ الدَّاعِي وَمَنْ دَعَا لَهُ" (فَتْحُ الْبَارِيِّ: ١٣/٢٢).

٥ – وَمِنْهَا: أَنَّ الصَّلاَةَ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ فِي تَحْصِيلِ الرِّزْقِ وَكِفَايَةِ الْعَبْدِ فِي كُلِّ أُمُورِ الدُّنْيَا. كَمَا قَالَ الشَّنْقِيطِيُّ –رَحِمَهُ اللَّهُ–: " وَوَعَدَ بِالرِّزْقِ –أَيْضاً– مَنْ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَيَصْطَبِرُ عَلَيْهَا، وَذَلِكَ كَمَا فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ –رَحِمَهُ اللَّهُ-: "قَوْلُهُ –تعَالَى-: ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً﴾ أَيْ: لا نَسْأَلُكَ أَنْ تَرْزُقَ نَفْسَكَ وَإِيَّاهُمْ، وَتَشْتَغِلَ عَنِ الصَّلاةِ بِسَبَبِ الرِّزْقِ. بَلْ نَحْنُ نَتَكَفَّلُ بِرِزْقِكَ وَإِيَّاهُمْ، فَكَانَ –عَلَيْهِ السَّلامُ– إِذَا نَزَلَ بِأَهْلِهِ ضِيقٌ أَمَرَهُمْ بِالصَّلاةِ" (الْجَامِعُ لأَحْكَامِ الْقُرْآنِ: ١١/٢٦٣).

٦ – وَمِنْهَا: أَنَّ إِقَامَةَ الصَّلاةِ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ الَّتِي تَمْنَعُ الْعَبْدَ عَنِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ، كَمَا قَالَ –تَعَالَى– : {وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [الْعَنْكَبُوتُ: ٤٥].

٧ – وَمِنْهَا: أَنَّ بِصَلاحِ الصَّلاةِ تَنْصَلِحُ أَحْوَالُ الْعَبْدِ وَأَعْمَالُهُ فِي الآخِرَةِ، وَيُفْلِحُ وَيَنْجَحُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلاتُهُ ، فَإِنْ صَلَحَتْ ، فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ ، وَإِنْ فَسَدَتْ ، فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ" (التِّرْمِذِيُّ، صَحِيحُ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ رقم: ٥٤٠).

وَيَكْفِي الصَّلاةَ عُلُوَّ شَأْنٍ وَمَكَانَةً فِي الإِسْلامِ أَنَّهَا عَمُودُهُ، كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ فَقَالَ: "أَلا أُخْبِرُكَ

بِرَأْسِ الأَمْرِ، وَعَمُودِهِ، وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟ رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ مَنْ أَسْلَمَ سَلِمَ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ" (صَحِيْحُ الْجَامِعِ رقم : ٥١٣٦).

وَلَخَّصَ النَّبِيُّ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ– فضْلَهَا فِي أَوْجَزِ عِبَارَةٍ وَأَبْلَغِهَا، فَقَالَ: "الصَّلاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ؛ فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَكْثِرَ فَلْيَسْتَكْثِرْ" (صَحِيْحُ الْجَامِعِ رقم: ٣٨٧٠).

وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الْمُؤْمِنُون: ٩ – ١١].

أَقْبِلْ على صَلَوَاتِكَ الخمسِ .... كَمْ مُصْبِحٍ وعَسَاهُ لا يُمْسِي

واسْتَقْبِلِ اليومَ الجديدَ بِتَوبَةٍ .... تَمْحُو بِهَا ذنوبَ صحيفةِ الأمسِ

مَشَاهِدُ إِقَامَةِ الصَّلاةِ

لابْنِ القَيِّمِ –رَحِمَهُ اللهُ– كَلامٌ مَتِيْنٌ فِي حَقِيْقَةِ (إِقَامَةِ الصَّلاةِ) عَلَى الطَّرِيْقَةِ النَّبَوِيَّةِ –خُشُوعاً وَطُمَأْنِينَةً– الَّتِي تُفْضِي بِصَاحِبِهَا إِلَى مَحَبَّةِ اللهِ –تَعَالَى– وَالاطْمِئْنَانِ بِذِكْرِهِ، وِالْفَرَحِ بِالصَّلاةِ.

وَلِكَوْنِ كَلامِهِ –رَحِمَهُ اللهُ– طَوِيْلاً اجْتَهَدْتُ فِي تَقْرِيبِهِ وَتَلْخِيْصِهِ، وَرُبَّمَا زِدْتُ بَعْضَ الْعِبَارَاتِ، وَوَضَعْتُ عَنَاوِينَ لِبَعْض جُمَلِهِ، وَقَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ بَعْضَ كَلامِهِ عَلَى بَعْضٍ حَتَّى يَصِلَ القَارِئُ إِلَى لُبِّ مَقْصُودِهِ بِأَيْسَرِ الطُّرُقِ.

وَمِنَ اللهِ –وَحْدَهُ– التَّوْفِيْقُ، وَدُونَكَ تِلْكَ الدُّرَر:

"فَأَمَرَنَا بِإِقَامَتِهَا وَهُوَ الإِتْيَانُ بِهَا قَائِمَةً تَامَةَ القِيَامِ وَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالأَذْكَارِ. وَقَدْ عَلَّقَ اللهُ –سُبْحَانَهُ– الفَلاحَ بِخُشُوعِ الْمُصَلِّي فِي صَلاتِهِ؛ فَمَنْ فَاتَهُ خُشُوعُ الصَّلاةِ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الفَلاحِ، وَيَسْتَحِيلُ حُصُولُ الخُشُوعِ مَعَ العَجَلَةِ وَالنَّقْرِ –قَطْعاً–. بَلْ لا يَحْصُلُ الخُشُوعُ قَطُّ إِلا مَعَ الطُّمَأْنِيْنَةِ، وَكُلَّمَا زَادَ طُمَأْنِيْنَةً ازْدَادَ خُشُوعاً،

وَكُلَّمَا قَلَّ خُشُوعُهُ اشْتَدَّتْ عَجَلَتُهُ حَتَّى تَصِيْرَ حَرَكَةُ يَدَيْهِ بِمَنْزِلَةِ الْعَبَثِ الَّذِي لا يَصْحَبُهُ خُشُوعٌ وَلا إِقْبَالٌ عَلَى الْعُبُودِيَّةِ، وَلا مَعْرِفَةُ حَقِيْقَةِ الْعُبُودِيَّةِ، وَاللهُ —سُبْحَانَهُ— قَدْ قَالَ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، وَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ وَقَالَ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ وَقَالَ: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وَقَالَ: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ —عَلَيْهِ السَّلامُ—: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ وَقَالَ لِمُوسَى —عَلَيْهِ السَّلامُ—: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

فَلَيْسَ مَنْ كَانَتِ الصَّلاةُ رَبِيعاً لِقَلْبِهِ، وَحَيَاةً لَهُ، وَقُرَّةً لِعَيْنِهِ، وَجَلاءً لِحُزْنِهِ، وَذَهَاباً لِهَمِّهِ وَغَمِّهِ، وَمَفْزَعاً لَهُ إِلَيْهِ فِي نَوَائِبِهِ وَنَوَازِلِهِ كَمَنْ هِيَ سُحْتٌ لِجَوَارِحِهِ، وَتَكْلِيْفٌ لَهُ وَثِقْلٌ عَلَيْهِ فَهِيَ كَبِيرَةٌ عَلَى هَذَا، وَقُرَّةُ عَيْنٍ وَرَاحَةٌ لِذَلِكَ.

وَقَالَ —تَعَالَى—: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾

فَإِنَّمَا كَبُرَتْ عَلَى غَيْرِ هَؤُلاءِ لِخُلُوِّ قُلُوبِهِمْ مِنْ مَحَبَّةِ اللّهِ –تَعَالَى– وَتَكْبِيرِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَالخُشُوعِ لَهُ وَقِلَّةِ رَغْبَتِهِمْ فِيْهِ.

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي رِوَايَةِ مُهَنَّا بْنِ يَحْيَى: إِنَّمَا حَظُّهُمْ مِنَ الإِسْلامِ عَلَى قَدْرِ حَظِّهِمْ مِنَ الصَّلاةِ وَرَغْبَتُهُمْ فِي الإِسْلامِ عَلَى قَدْرِ رَغْبَتِهِمْ فِي الصَّلاةِ فَاعْرِفْ نَفْسَكَ يَا عَبْدَ اللّهِ وَاحْذَرْ أَنْ تَلْقَى اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَلا قَدْرَ لِلإِسْلامِ عِنْدَكَ، فَإِنَّ قَدْرَ الإِسْلامِ فِي قَلْبِكَ كَقَدْرِ الصَّلاةِ فِي قَلْبِكَ. وَلَيْسَ حَظُّ القَلْبِ العَامِرِ بِمَحَبَّةِ اللّهِ وَخَشْيَتِهِ وَالرَّغْبَةِ فِيْهِ وَإِجْلالِهِ وَتَعْظِيمِهِ مِنَ الصَّلاةِ كَحَظِّ القَلْبِ الخَالِي الْخَرَابِ مِنْ ذَلِكَ.

مَشْهَدُ القِيَامِ لِلصَّلاةِ

إِذَا انْتَصَبَ الْمُصَلِّي قَائِماً بَيْنَ يَدَي الرَّبِّ –تَبَارَكَ، وَتَعَالَى– شَاهَدَ بِقَلْبِهِ قَيُّومِيَّتَهُ، وَاطِّلاعَهُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ قَدْ أَذِنَ لَهُ بِالْمُنَاجَاةِ الإِلَهِيَّةِ.

مَشْهَدُ التَّكْبِيرِ

إِذَا قَالَ: ﴿اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ شَاهَدَ كِبْرِيَاءَهُ الْجَامِعَ لإِثْبَاتِ كُلِّ كَمَالٍ لَهُ وَتَنْزِيْهِهِ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ. وَإِفْرَادِهِ وَتَخْصِيْصِهِ بِذَلِكَ مَعَ تَعْظِيمِهِ وَإِجْلالِهِ، فَالتَّكْبِيرُ يَتَضَمَّنُ تَفَاصِيلَ أَفْعَالِ الصَّلاةِ وَأَقْوَالِهَا وَهَيْآتِهَا، فَالصَّلاةُ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا تَفْصِيلٌ لِمَضْمُونِ ﴿اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ وَأَيُّ تَحْرِيمٍ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا التَّحْرِيمِ الْمُتَضَمِّنِ لِلإِخْلاصِ وَالتَّوْحِيْدِ.

مَشْهَدُ رَفْعِ الْيَدَيْنِ مَعَ التَّكْبِيرِ

فَيَشْهَدُ بِقَلْبِهِ أَنَّ رَفْعَ الْيَدِيْنِ زِيْنَةُ الصَّلاةِ، وَاتِّبَاعٌ لِلسُّنَّةِ، وَتَعْظِيمُ أَمْرِ اللهِ، وَعُبُودِيَّةُ الْيَدِيْنِ، وَشِعَارُ الانْتِقَالِ مِنْ رُكْنٍ إِلَى رُكْنٍ.

مَشْهَدُ أَذْكَارِ الاسْتِفْتَاحِ

"سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ تَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلا إِلَهَ غَيْرُكَ".

فَإِذَا قَالَ: [سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ] شَاهَدَ بِقَلْبِهِ رَبًّا مُنَزَّهاً عَنْ كُلِّ عَيْبٍ سَالِماً مِنْ كُلِّ نَقْصٍ، مَحْمُوداً بِكُلِّ حَمْدٍ؛ فَحَمْدُهُ يَتَضَمَّنُ وَصْفَهُ بِكُلِّ كَمَالٍ، وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ بَرَاءَتَهُ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ.

[تَبَارَكَ اسْمُكَ] فَلا يُذْكَرُ عَلَى قَلِيلٍ إِلَّا كَثَّرَهُ، وَلا عَلَى خَيْرٍ إِلَّا أَنْمَاهُ وَبَارَكَ فِيْهِ، وَلا عَلَى آفَةٍ إِلَّا أَذْهَبَهَا، وَلا عَلَى شَيْطَانٍ إِلَّا رَدَّهُ خَاسِئاً دَاحِراً، وَكَمَالُ الاسْمِ مِنْ كَمَالِ مُسَمَّاهُ.

[وَتَعَالَى جَدُّكَ] أَيْ ارْتَفَعَتْ عَظَمَتُكَ، وَجَلَّتْ فَوْقَ كُلِّ عَظَمَةٍ، وَعَلا شَأْنُهُ عَلَى كُلِّ شَأْنٍ، وَقَهَرَ سُلْطَانُهُ عَلَى كُلِّ سُلْطَانٍ؛ [وَلا إِلَهَ غَيْرُكَ] فَتَعَالَى جَدُّكَ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ شَرِيْكَ فِي مُلْكِكَ وَرُبُوبِيَّتِكَ، أَوْ فِي إِلَهِيَّتِكَ، أَوْ فِي أَفْعَالِكَ، أَوْ فِي صِفَاتِكَ.

مَشْهَدُ الاسْتِعَاذَةِ

أَنْ يَشْهَدَ الْقَلْبُ عِنْدَ الاسْتِعَاذَةِ أَنَّهُ يَفْزَعُ إِلَى ذِيْ الْقُوَّةِ الْمَتِيْنِ، وَيَعْتَصِمُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ مِنْ عَدُوِّهِ الَّذِي يُرِيْدُ أَنْ يَقْطَعَهُ عَنْ رَبِّهِ، وَيُبْعِدَهُ عَنْ قُرْبِهِ، وَيَمْنَعَ عَنْهُ مَادَةَ حَيَاتِهِ.

فَتَخْرُجُ الاسْتِعَاذَةُ بِاللّهِ مِنْ قَلْبِهِ مَقْرُونَةً بِكَمَالِ الافْتِقَارِ إِلَيْهِ — سُبْحَانَهُ—.

مَشْهَدُ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ

إِذَا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَقَفَ هُنَيْهَةً يَسِيْرَةً يَنْتَظِرُ جَوَابَ رَبِّهِ لَهُ بِقَوْلِهِ: "حَمَدَنِي عَبْدِي".

وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ انْتَظَرَ الْجَوَابَ بِقَوْلِهِ: "اثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي".

وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ انْتَظَرَ جَوَابَهُ: "مَجَّدَنِي عَبْدِي".

فَيَا لَذَّةَ قَلْبِهِ وَقُرَّةَ عَيْنِهِ وَسُرُورَ نَفْسِهِ بِقَوْلِ رَبِّهِ: (عَبْدِي) ثلاثَ مَرَّاتٍ، فَوَاللهِ لَوْلا مَا عَلَى الْقُلُوبِ مِنْ دُخَانِ الشَّهَوَاتِ، وَغَيْمِ النُّفُوسِ لاسْتُطِيْرَتْ فَرَحاً وَسُرُوراً بِقَوْلِ رَبِّهَا وَفَاطِرِهَا وَمَعْبُودِهَا: "حَمَدَنِي عَبْدِني، وَأَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَمَجَّدَنِي عَبْدِي".

ثُمَّ يَكُونُ لِقَلْبِهِ مَجَالٌ مِنْ شُهُودِ هَذِهِ الأَسْمَاءِ الثَّلاثَةِ الَّتِي هِيَ أُصُولُ الأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَهِيَ: (اللهُ، وَالرَّبُّ، وَالرَّحْمَنُ).

فَيُشَاهِدُ قَلْبُهُ مِنْ ذِكْرِ اسْمِ (اللهِ) تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَهاً مَعْبُوداً مَوْجُوداً مَخُوفاً لا يَسْتَحِقُّ العِبَادَةَ غَيْرُهُ وَلا تَنْبَغِي إلا لَهُ.

وَيُشَاهِدُ مِنْ ذِكْرِ اسْمِهِ (رَبِّ الْعَالَمِيْنَ) قَيُّوماً. قَامَ بِنَفْسِهِ، وَقَامَ بِهِ كُلُّ شَيْءٍ فَهُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِخَيْرِهَا وَشَرِّهَا. قَدْ اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ وَتَفَرَّدَ بِتَدْبِيْرِ مُلْكِهِ.

ثُمَّ يَشْهَدُ عِنْدَ ذِكْرِ اسْمِ (الرَّحْمَنِ) جَلَّ جَلالُهُ رَبّاً مُحْسِناً إِلَى خَلْقِهِ بِأَنْوَاعِ الإِحْسَانِ مُتَحَبِّباً إِلَيْهِمْ بِصُنُوفِ النِّعَمِ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً، وَأَوْسَعَ كُلَّ مَخْلُوقٍ نِعْمَةً وَفَضْلاً.

وَمِنْ أَخَصِّ مَشَاهِدِ هَذَا الاسْمِ شُهُودُ الْمُصَلِّي نَصِيْبَهُ مِنَ الرَّحْمَةِ الَّذِي أَقَامَهُ بِهَا بَيْنَ يَدَيِّ رَبِّهِ، وَأَهَّلَهُ لِعُبُودِيَّتِهِ وَمُنَاجَاتِهِ وَأَعْطَاهُ وَمَنَعَ غَيْرَهُ وَأَقْبَلَ بِقَلْبِهِ وَأَعْرَضَ بِقَلْبِ غَيْرِهِ وَذَلِكَ مِنْ رَحْمَتِهِ بِهِ.

وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فَهُنَا يَشْهَدُ الْمَجْدَ الَّذِي لا يَلِيْقُ بِسِوَى الْمَلِكِ الْحَقِّ الْمُبِيْنِ؛ فَيَشْهَدُ مَلِكاً قَاهِراً عَلَى عَرْشِ السَّمَاءِ مُهَيْمِناً قَدْ دَانَتْ لَهُ الْخَلِيقَةُ، وَعَنَتْ لَهُ الْوُجُوهُ، وَذَلَّتْ لِعَظَمَتِهِ الْجَبَابِرَةُ، وَخَضَعَ لِعِزَّتِهِ كُلُّ عَزِيْزٍ، وَلَهُ تَعْنُو الْوُجُوهُ وَتَسْجُدُ.

وَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فَفِيْهَا سِرُّ الْخَلْقِ وَالأَمْرِ وَالدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لأَجَلِّ الْغَايَاتِ وَأَفْضَلِ الْوَسَائِلِ، فَأَجَلُّ الْغَايَاتِ عُبُودِيَّتُهُ وَأَفْضَلُ الْوَسَائِلِ إِعَانَتُهُ؛ فَلا مَعْبُودَ يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلا هُوَ وَلا مُعِيْنَ عَلَى عِبَادَتِهِ غَيْرُهُ.

ثُمَّ يَشْهَدُ الدَّاعِي بِقَوْلِهِ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ شِدَّةَ فَاقَتِهِ وَضَرُورَتِهِ إِلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الَّتِي لَيْسَ هُوَ إِلَى شَيْءٍ أَشَدَّ فَاقَةً وَحَاجَةً مِنْهُ إِلَيْهَا الْبَتَّةَ؛ فَإِنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ فِي كُلِّ نَفَسٍ وَطَرْفَةِ عَيْنٍ.

وَلَمَّا كَانَ الْعَبْدُ مُفْتَقِراً فِي كُلِّ حَالٍ إِلَى هَذِهِ الْهِدَايَةِ فِي جَمِيْعِ مَا يَأْتِيْهِ وَيَذَرُهُ مِنْ:

- أُمُورٍ قَدْ أَتَاهَا عَلَى غَيْرِ الْهِدَايَةِ، فَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَى التَّوْبَةِ مِنْهَا.
- وَأُمُورٍ هُدِيَ إِلَى أَصْلِهَا دُوْنَ تَفْصِيْلِهَا أَوْ هُدِيَ إِلَيْهَا مِنْ وَجْهٍ دُوْنَ وَجْهٍ، فَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَى إِتْمَامِ الْهِدَايَةِ فِيْهَا لِيَزْدَادَ هُدًى.
- وَأُمُورٍ هُوَ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَحْصُلَ لَهُ مِنَ الْهِدَايَةِ فِيْهَا بِالْمُسْتَقْبَلِ مِثْلَ مَا حَصَلَ لَهُ فِي الْمَاضِي.
- وَأُمُورٍ هُوَ خَالٍ عَنْ اعْتِقَادٍ فِيْهَا فَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَى الْهِدَايَةِ فِيْهَا.
- وَأُمُورٍ لَمْ يَفْعَلْهَا فَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَى فِعْلِهَا عَلَى وَجْهِ الْهِدَايَةِ.
- وَأُمُورٍ قَدْ هُدِيَ إِلَى الاعْتِقَادِ الْحَقِّ وَالْعَمَلِ الصَّوَابِ فِيْهَا فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى الثَّبَاتِ عَلَيْهَا.

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْهِدَايَاتِ لِذَلِكَ فَرَضَ اللّهُ – سُبْحَانَهُ– عَلَيْهِ أَنْ يَسْأَلَهُ هَذِهِ الْهِدَايَةَ فِي أَفْضَلِ أَحْوَالِهِ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ هَذِهِ الْهِدَايَةِ هُمْ الْمُخْتَصُّونَ بِنِعْمَتِهِ دُوْنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ الَّذِيْنَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَتَّبِعُوهُ، وَدُوْنَ الضَّالِّيْنَ وَهُمْ الَّذِيْنَ عَبَدُوا اللّهَ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

مَشْهَدُ التَّأْمِيْنِ، وَتَتِمَّةُ الْقِيَامِ

فَإِذَا فَرَغَ مِنْ هَذَا الثَّنَاءِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْحِيْدِ شُرِعَ لَهُ أَنْ يَطْبَعَ عَلَى ذَلِكَ بِطَابِعٍ مِنَ التَّأْمِيْنِ يَكُونُ كَالْخَاتَمْ لَهُ وَافَقَ فِيْهِ مَلائِكَةَ السَّمَاءِ وَهَذَا التَّأْمِيْنِ مِنْ زِيْنَةِ الصَّلاةِ.

ثُمَّ يَأْخُذُ فِي مُنَاجَاةِ رَبِّهِ بِكَلامِهِ، وَاسْتِمَاعِهِ مِنَ الإِمَامِ بِالإِنْصَاتِ وَحُضُورِ الْقَلْبِ وَشُهُودِهِ. وَأَحْسَنُ هَيْئَةِ الْمُصَلِّي هَيْئَةُ الْقِيَامِ، فَخُصَّتْ بِتِلاوَةِ كَلامِ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ.

مَشْهَدُ الرُّكُوعِ

يَشْهَدُ الْقَلْبُ فِي هَذَا الرُّكْنِ أَنَّهُ حَالُ ذُلٍّ وَخُضُوعٍ وَانْخِفَاضٍ، لِهَذَا شُرِعَ لِلرَّاكِعِ أَنْ يَذْكُرَ عَظَمَةَ رَبِّهِ فِي حَالِ انْخِفَاضِهِ هُوَ وَخُضُوعِهِ، فَأَفْضَلُ مَا يَقُولُ الرَّاكِعُ عَلَى الاطْلاقِ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيْمِ.

وَالرُّكُوعُ تَعْظِيْمُ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ بِالْقَلْبِ وَالْقَالَبِ وَالْقَوْلِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيْهِ الرَّبَّ".

مَشْهَدُ الاعْتِدَالِ مِنَ الرُّكُوعِ

وَإِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مُعْتَدِلاً، يَشْهَدُ بِقَلْبِهِ أَنَّهُ جُعِلَ شِعَارُ هَذَا الرُّكْنِ حَمْدُ اللهِ، وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِ، وَتَحْمِيْدُهُ.

فَيَفْتَتِحُ هَذَا الشِّعَارَ بِقَوْلِهِ: "سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ" أَيْ: سَمِعَ سَمْعَ قَبُولٍ وَإِجَابَةٍ، ثُمَّ يَقُولُ: "رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ" وَلا يُهْمِلْ أَمْرَ هَذِهِ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ: "رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ"؛ فَإِنَّهُ قَدْ نُدِبَ الأَمْرُ بِهَا فِي الصَّحِيْحَيْنِ، وَهِيَ تَجْعَلُ الْكَلامَ فِي تَقْدِيْرِ جُمْلَتَيْنِ قَائِمَتَيْنِ بِأَنْفُسِهِمَا؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: "رَبَّنَا" مُتَضَمِّنٌ فِي الْمَعْنَى أَنْتَ الرَّبُّ وَالْمَلِكُ الْقَيُّومُ الَّذِي بِيَدَيْهِ أَزِمَّةُ الأُمُورِ وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهَا، فَعَطَفَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى الْمَفْهُومِ مَنْ قَوْلِهِ: "رَبَّنَا" قَوْلَهُ: "وَلَكَ الْحَمْدُ" فَتَضَمَّنَ ذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِ الْمُوَحِّدِ: لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ.

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ شَأْنِ هَذَا الْحَمْدِ وَعَظَمَتِهِ قَدْراً وَصِفَةً، فَقَالَ: "مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ" أَيْ: قَدْرَ

مَلْءِ الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ وَالْفَضَاءِ الَّذِي بَيْنَهُمَا، فَهَذَا الْحَمْدُ قَدْ مَلأَ الْخَلْقَ الْمَوْجُودَ وَهُوَ يَمْلأُ مَا يَخْلُقُهُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ.

ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: "أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ" فَعَادَ الأَمْرُ بَعْدِ الرَّكْعَةِ إِلَى مَا افْتَتَحَ بِهِ الصَّلاةَ قَبْلَ الرَّكْعَةِ: مِنَ الْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ.

ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: "أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ" تَقْرِيرًا لِحَمْدِهِ وَتَمْجِيْدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ أَحَقُّ مَا نَطَقَ بِهِ الْعَبْدُ.

ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِالاعْتِرَافِ بِالعُبُودِيَّةِ وَأَنَّ ذَلِكَ حُكْمٌ عَامٌ لِجَمِيْعِ الْعَبِيْدِ، فقال: "وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ".

ثُمَّ عَقَّبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: "لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلا يَنْفَعُ ذَا الْجِدِّ مِنْكَ الْجِدُّ" اعْتِرَافاً بِتَوْحِيْدِهِ وَأَنَّ النِّعَمَ كُلَّهَا مِنْهُ، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ أُمُوراً:

أَحَدَهَا: أَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ.

الثَّانِي: أَنَّهُ إِذَا أَعْطَى لَمْ يُطِقْ أَحَدٌ مَنْعَ مَنْ أَعْطَاهُ، وَإِذَا مَنَعَ لَمْ يُطِقْ أَحَدٌ إِعْطَاءَ مَنْ مَنَعَهُ.

الثَّالِـثَ: أَنَّهُ لا يَنْفَعُ عِنْدَهُ، وَلا يُخَلِّصُ مِنْ عَذَابِهِ، وَلا يُدْنِي مِنْ كَرَامَتِهِ جُدُودُ بَنِي آدَمَ وَحُظُوظُهُمْ مِنَ الْمُلْكِ وَالرِّئَاسَةِ وَالْغِنَى وَطِيْبِ الْعَيْشِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، إِنَّمَا يَنْفَعُهُمْ عِنْدَهُ التَّقَرُّبُ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ وَإِيْثَارِ مَرْضَاتِهِ.

فَاشْتَمَلَ هَذَا الرُّكْنُ عَلَى أَفْضَلِ الأَذْكَارِ وَأَنْفَعِ الدُّعَاءِ مِنْ حَمْدِهِ وَتَمْجِيْدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالاعْتِرَافِ لَهُ بِالعُبُودِيَّةِ وَالتَّوْحِيْدِ فَهُوَ ذِكْرٌ مَقْصُودٌ فِي رُكْنٍ مَقْصُودٍ لَيْسَ بِدُوْنِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ.

مَشْهَدُ السُّجُوْدِ

ثُمَّ يُكَبِّرُ وَيَخِرُّ للهِ غَيْرَ رَافِعٍ يَدَيْهِ؛ لأَنَّ الْيَدَيْنِ تَنْحَطَّانِ لِلسُّجُودِ كَمَا يَنْحَطُّ الْوَجْهُ فَهُمَا يَنْحَطَّانِ لِعُبُودِيَّتِهِمَا فَأَغْنَى ذَلِكَ عَنْ رَفْعِهِمَا، وَشُرِعَ السُّجُودُ عَلَى أَكْمَلِ هَيْئَةٍ فِي الْعُبُودِيَّةِ وَأَعَمِّهَا لِسَائِرِ الأَعْضَاءِ بِحَيْثُ يَأْخُذُ كُلُّ جُزْءٍ مِنَ الْبَدَنِ بِحَظِّهِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ.

وَأُمِرَ بِالسُّجُودِ خُضُوعاً لِعَظَمَةِ رَبِّهِ وَخُشُوعاً لَهُ وَتَذَلُّلاً بَيْنَ يَدَيْهِ وَانْكِسَاراً لَهُ، وَذَلِكَ رَدٌّ لَهُ إِلَى حُكْمِ العُبُودِيَّةِ؛ لِيَتَدَارَكَ مَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْهَفْوَةِ وَالْغَفْلَةِ وَالإِعْرَاضِ الَّذِي خَرَجَ بِهِ عَنْ أَصْلِهِ.

وَهَذَا غَايَةُ خُشُوعِ الظَّاهِرِ؛ فَإِنَّ اللّهَ —سُبْحَانَهُ— خَلَقَهُ مِنَ الأَرْضِ الَّتِي هِيَ مُذَلَّلَةٌ لِلْوَطْءِ بِالأَقْدَامِ؛ فَيُعَفِّرُ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ اسْتِكَانَةً وَتَوَاضُعاً.

قَالَ مَسْرُوقٌ لِسَعِيْدِ بْنِ جُبَيْرٍ: مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُرْغَبُ فِيْهِ إِلَّا أَنْ نُعَفِّرَ وُجُوهَنَا فِي التُّرَابِ لَهُ.

وَأَخْبَرَ —سُبْحَانَهُ— عَنْ سُجُودِ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ لَهُ فَقَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

فَالَّذِي حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ هُوَ الَّذِي لا يَسْجُدُ للهِ —سُبْحَانَهُ— وَهُوَ الَّذِي أَهَانَهُ بِتَرْكِ السُّجُودِ لَهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لا مُكْرِمَ لَهُ.

وَلِذَلِكَ إِذَا رَأَى الشَّيْطَانُ ابْنَ آدَمَ سَاجِداً للهِ اعْتَزَلَ نَاحِيَةً يَبْكِي وَيَقُولُ: يَا وَيْلَهُ أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَعَصَيْتُ فَلِيَ النَّارُ.

وَالسُّجُودُ أَفْضَلُ أَرْكَانِ الصَّلاةِ الْفِعْلِيَّةِ، وَسِرُّهَا الَّذِي شُرِعَتْ لأَجْلِهِ وَرُكْنُهَا الأَعْظَمُ، وَكَانَ تَكَرُّرُهُ فِي الصَّلاةِ أَكْثَرَ مِنْ تَكَرُّرِ سَائِرِ الأَرْكَانِ وَجَعْلُهُ خَاتِمَةَ الرَّكْعَةِ وَغَايَتَهَا وَمَا قَبْلَهُ مِنَ الأَرْكَانِ كَالْمُقَدِّمَاتِ لَهُ وَشَرْعُ فِعْلِهِ بَعْدَ الرُّكُوعِ، فَإِنَّ الرُّكُوعَ تَوْطِئَةً لَهُ وَمُقَدِّمَةً بَيْنَ يَدَيْهِ.

وَشُرِعَ فِيهِ قَوْلُ: "سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى" فَهَذَا أَفْضَلُ مَا يُقَالُ فِيهِ؛ لأَنَّ وَصْفَ الرَّبِّ بِالْعُلُوِّ فِي هَذِهِ الْحَالِ فِي غَايَةِ الْمُنَاسَبَةِ لِحَالِ السَّاجِدِ الَّذِي قَدْ انْحَطَّ إِلَى السُّفْلِ عَلَى وَجْهِهِ فَذَكَرَ عُلُوَّ رَبِّهِ فِي حَالِ سُقُوطِهِ؛ وَلِهَذَا أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، وَأَفْضَلُ الأَحْوَالِ لَهُ حَالٌ يَكُونُ فِيهَا أَقْرَبُ إِلَى اللهِ، وَلِهَذَا كَانَ الدُّعَاءُ فِي هَذَا الْمَحَلِّ أَقْرَبَ إِلَى الإِجَابَةِ.

مَشْهَدُ الْجَلْسَةِ بَيْنَ السُّجُودَيْنِ

ثُمَّ لَمَّا شُرِعَ السُّجُودُ بِوَصْفِ التَّكْرَارِ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ الْفَصْلِ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ، فَفُصِلَ بَيْنَهُمَا بِرُكْنٍ مَقْصُودٍ شُرِعَ فِيهِ مِنَ الدُّعَاءِ مَا يَلِيْقُ بِهِ وَيُنَاسِبُهُ وَهُوَ سُؤَالُ الْعَبْدِ: الْمَغْفِرَةَ، وَالرَّحْمَةَ، وَالْهِدَايَةَ، وَالْعَافِيَةَ، وَالرِّزْقَ؛ فَإِنَّ هَذِهِ تَتَضَمَّنُ جَلْبَ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَدَفْعَ شَرِّ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

فَالرَّحْمَةُ تُحَصِّلُ الْخَيْرَ، وَالْمَغْفِرَةُ تَقِي الشَّرَّ، وَالْهِدَايَةُ تُوصِلُ إِلَى هَذَا وَهَذَا، وَالرِّزْقُ إِعْطَاءُ مَا بِهِ قَوَامُ الْبَدَنِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَمَا بِهِ قَوَامُ الرُّوحِ وَالْقَلْبِ مِنَ الْعِلْمِ وَالإِيْمَانِ.

فَهَذَا الرُّكْنُ الدُّعَاءُ فِيهِ مَقْصُودٌ، فَهُوَ رُكْنٌ وُضِعَ لِلرَّغْبَةِ وَطَلَبِ الْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ؛ فَيَقْعُدُ فِعْلَ الْعَبْدِ الذَّلِيْلِ جَاثِياً عَلَى رُكْبَتَيْهِ كَهَيْئَةِ الْمُلْقِي نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيْ سَيِّدِهِ رَاغِباً رَاهِباً مُعْتَذِراً إِلَيْهِ مُسْتَعْدِياً إِلَيْهِ عَلَى نَفْسِهِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ.

مَشْهَدُ التَّشَهُّدِ

وَإِذَا جَلَسَ فِي آخِرِ صَلاتِهِ شَهِدَ بِقَلْبِهِ جَلْسَةَ الْمُتَخَشِّعِ الْمُتَذَلِّلِ الْمُسْتَكِيْنِ جَاثِياً عَلَى رَكْبَتَيْهِ، وَيَأْتِي فِيْهَا بِأَكْمَلِ التَّحِيَّاتِ وَأَفْضَلِهَا عِوَضاً عَنْ تَحِيَّةِ الْمَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ إِذَا وَاجَهَهُ أَوْ دَخَلَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُحَيُّونَ مُلُوكَهُمْ وَأَكَابِرَهُمْ بِأَنْوَاعٍ التَّحِيَّاتِ.

قَالَ الْحَسَنُ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَتَمَسَّحُونَ بِأَصْنَامِهِمْ وَيَقُولُونَ: لَكِ الْحَيَاةُ الدَّائِمَةُ، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلامُ أُمِرُوا أَنْ يَجْعَلُوا أَطْيَبَ تِلْكَ التَّحِيَّاتِ وَأَزْكَاهَا وَأَفْضَلَهَا للهِ [التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ]؛ فَإِنَّهَا تَتَضَمَّنُ الْحَيَاةَ وَالْبَقَاءَ وَالدَّوَامَ. وَلا يَسْتَحِقُّ أَحَدٌ هَذِهِ التَّحِيَّاتِ إِلا الْحَيُّ الْبَاقِي الَّذِي لا يَمُوتُ وَلا يَزُولُ مُلْكُهُ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ [وَالصَّلَوَاتُ]؛ فَإِنَّهُ لا يَسْتَحِقُّ أَحَدٌ الصَّلاةَ إِلا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَالصَّلاةُ لِغَيْرِهِ مِنْ أَعْظَمِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ بِهِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ [وَالطَّيِّبَاتُ] هِيَ صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ أَيْ الطَّيِّبَاتُ مِنَ الْكَلِمَاتِ وَالأَفْعَالِ وَالصِّفَاتِ وَالأَسْمَاءِ للهِ وَحْدَهُ فَهُوَ طَيِّبٌ وَأَفْعَالُهُ طَيِّبَةٌ وَصِفَاتُهُ أَطْيَبُ شَيْءٍ وَأَسْمَاؤُهُ أَطْيَبُ الأَسْمَاءِ وَاسْمُهُ الطَّيِّبُ وَلا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلا طَيِّبٌ وَلا يَصْعَدُ إِلَيْهِ إِلا طَيِّبٌ وَلا يَقْرُبُ مِنْهُ إِلا طَيِّبٌ بَلْ مَا طَابَ شَيْءٌ قَطُّ إِلا بِطِيْبَتِهِ —سُبْحَانَهُ—، فَطِيْبُ كُلِّ مَا سِوَاهُ مِنْ آثَارِ طِيْبَتِهِ، وَلا تَصْلُحُ هَذِهِ التَّحِيَّةُ الطَّيِّبَةُ إِلا لَهُ.

وَلَمَّا كَانَ السَّلامُ مِنْ أَنْوَاعِ التَّحِيَّةِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُ دَاعِياً لِمَنْ يُحَيِّيهِ، وَكَانَ اللهُ —سُبْحَانَهُ— هُوَ الَّذِي يُطْلَبُ مِنْهُ السَّلامُ لِعِبَادِهِ الَّذِينَ اخْتَصَّهُمْ بِعُبُودِيَّتِهِ وَارْتَضَاهُمْ لِنَفْسِهِ شَرَعَ أَنْ يُبْدَأَ بِأَكْرَمِهِمْ عَلَيْهِ وَأَحَبِّهِمْ إِلَيْهِ وَأَقْرَبِهِمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً، فَيَقُولُ: [السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ].

وَيَأْتِي فِي هَذِهِ التَّحِيَّةِ بِالشَّهَادَتَيْنِ اللَّتَيْنِ هُمَا مِفْتَاحُ الإِسْلامِ، فَشُرِعَ أَنْ يَكُونَ خَاتِمَةَ الصَّلاةِ، فَدَخَلَ فِيْهَا بِالتَّكْبِيْرِ وَالْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ وَالتَّمْجِيْدِ وَتَوْحِيْدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالإِلَهِيَّةِ وَخَتَمَهَا بِشَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

وَشُرِعَتْ هَذِهِ التَّحِيَّةُ فِي وَسَطِ الصَّلاةِ، إِذَا زَادَتْ عَلَى رَكْعَتَيْنِ تَشْبِيْهًا لَهَا بِجَلْسَةِ الْفَصْلِ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ، وَفِيْهَا مَعَ الْفَصْلِ رَاحَةً لِلْمُصَلِّي لاسْتِقْبَالِهِ الرَّكْعَتَيْنِ الآخِرَتَيْنِ بِنَشَاطٍ وَقُوَّةٍ.

التَّشَهُّدُ الأَخِيرُ

وَجُعِلَتْ كَلِمَاتُ التَّحِيَّاتُ فِي آخِرِ الصَّلاةِ بِمَنْزِلَةِ خُطْبَةِ الْحَاجَةِ أَمَامَهَا؛ فَإِنَّ الْمُصَلِّي إِذَا فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ جَلَسَ جَلْسَةَ الرَّاغِبِ الرَّاهِبِ يَسْتَعْطِي مِنْ رَبِّهِ مَا لا غِنَى بِهِ عَنْهُ، فَشُرِعَ لَهُ أَمَامَ اسْتِعْطَائِهِ كَلِمَاتُ التَّحِيَّاتِ مُقَدِّمَةً بَيْنَ يَدَيْ سُؤَالِهِ، ثُمَّ يُتْبِعُهَا بِالصَّلاةِ عَلَى مَنْ نَالَتْ أُمَّتُهُ هَذِهِ النِّعْمَةَ عَلَى يَدِهِ، فَكَأَنَّ الْمُصَلِّي تَوَسَّلَ إِلَى اللهِ –سُبْحَانَهُ– بِعُبُودِيَّتِهِ، ثُمَّ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالشَّهَادَةِ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَلِرَسُولِهِ بِالرِّسَالَةِ ثُمَّ الصَّلاةِ عَلَى رَسُولِهِ ثُمَّ قِيْلَ لَهُ تَخَيَّرْ مِنَ الدُّعَاءِ أَحَبَّهُ إِلَيْكَ فَذَاكَ الْحَقُّ الَّذِي عَلَيْكَ، وَهَذَا الْحَقُّ الَّذِي لَكَ.

وَشُرِعَتْ الصَّلاةُ عَلَى آلِهِ مَعَ الصَّلاةِ عَلَيْهِ تَكْمِيلاً لِقُرَّةِ عَيْنِهِ بِإِكْرَامِ آلِهِ وَالصَّلاةِ عَلَيْهِمْ، وَأَنْ يُصَلِّي عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ كَمَا صَلَّى عَلَى أَبِيْهِ إِبْرَاهِيْمِ وَآلِهِ وَالأَنْبِيَاءُ كُلُّهُمْ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ مِنْ آلِهِ؛ فَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ

الصَّلاةُ أَكْمَلُ مَا يُصَلِّي عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَا وَأَفْضَلُ، فَإِذَا أَتَى بِهَا الْمُصَلِّي أُمِرَ:

أَنْ يَسْتَعِيذَ بِاللهِ مِنْ مَجَامِعِ الشَّرِّ كُلِّهِ؛ فَإِنَّ الشَّرَّ إِمَّا عَذَابُ الآخِرَةِ وَإِمَّا سَبَبُهُ فَلَيْسَ الشَّرُّ إِلا الْعَذَابَ وَأَسْبَابَهُ.

وَالْعَذَابُ نَوْعَانِ: عَذَابٌ فِي الْبَرْزَخِ، وَعَذَابٌ فِي الآخِرَةِ.

وَأَسْبَابُهُ: الْفِتْنَةُ وَهِيَ نَوْعَانِ: كُبْرَى وَصُغْرَى، فَالْكُبْرَى فِتْنَةُ الدَّجَالِ، وَفِتْنَةُ الْمَمَاتِ. وَالصُّغْرَى فِتْنَةُ الْحَيَاةِ الَّتِي يُمْكِنُ تَدارُكُهَا بِالتَّوْبَةِ بِخِلافِ فِتْنَةِ الْمَمَاتِ وَفِتْنَةِ الدَّجَالِ؛ فَإِنَّ الْمَفْتُونَ فِيْهِمَا لا يَتَدارَكُهَا.

ثُمَّ شُرِعَ لَهُ مِنَ الدُّعَاءِ مَا يَخْتَارُهُ مِنْ مَصَالِحِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ. وَالدُّعَاءُ فِي هَذَا الْمَحَلِّ قَبْلَ السَّلامِ أَفْضَلُ مِنَ الدُّعَاءِ بَعْدَ السَّلامِ، وَأَنْفَعُ لِلدَّاعِي، وَهَكَذَا كَانَتْ عَامَّةُ أَدْعِيَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلِّهَا كَانَتْ فِي الصَّلاةِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا.

مَشْهَدُ التَّسْلِيْـمِ

ثُمَّ خُتِمَتْ بِالتَّسْلِيْمِ، وَجُعِلَ تَحْلِيْلاً لَهَا يَخْرُجُ بِهِ الْمُصَلِّي مِنْهَا كَمَا يَخْرُجُ بِتَحْلِيْلِ الْحَجِّ مِنْهُ، وَجُعِلَ هَذَا التَّحْلِيْلُ دُعَاءَ الإِمَامِ لِمَنْ وَرَاءَهُ بِالسَّلامَةِ الَّتِي هِيَ أَصْلُ الْخَيْرِ وَأَسَاسُهُ. فَشُرِعَ لِمَنْ وَرَاءَهُ أَنْ يَتَحَلَّلَ بِمِثْلِ مَا تَحَلَّلَ بِهِ الإِمَامُ، وَفِي ذَلِكَ دُعَاءٌ لَهُ وَلِلْمُصَلِّيْنَ مَعَهُ بِالسَّلامِ، ثُمَّ شُرِعَ ذَلِكَ لِكُلِّ مُصَلٍّ وَإِنْ كَانَ مُنْفَرِداً فَلا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا التَّحْلِيْلِ لِلصَّلاةِ، وَكَمَا أَنَّهُ لا أَحْسَنَ مِنْ كَوْنِ التَّكْبِيرِ تَحْرِيماً لَهَا فَتَحْرِيْمُهَا تَكْبِيرُ الرَّبِّ –تَعَالَى– الْمُتَضَمِّنُ لِلإِخْلاصِ وَالتَّوْحِيْدِ، وَهَذَا التَّحْلِيْلُ الْمُتَضَمِّنُ الإِحْسَانَ إِلَى إِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِيْنَ فَافْتُتِحَتْ بِالإِخْلاصِ وَخُتِمَتْ بِالإِحْسَانِ.

خَاتِمَةُ مَشَاهِدِ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ

فَالصَّلاةُ وُضِعَتْ عَلَى هَذَا النَّحْوِ وَهَذَا التَّرْتِيْبِ لا يُمْكِنُ أَنْ يُحَصَّلَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ مَقَاصِدِهَا الَّتِي هِيَ جُزْءٌ يَسِيْرٌ مِنْ قَدْرِهَا وَحَقِيْقَتِهَا إِلا مَعَ الإِكْمَالِ وَالإِتْمَامِ وَالتَّمَهُّلِ الَّذِي كَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْعَلُهُ، وَمُحَالٌ حُصُولُ مَا ذَكَرْنَاهُ مَعَ النَّقْرِ وَالتَّخْفِيْفِ الَّذِي يَرْجِعُ إِلَى شَهْوَةِ الإِمَامِ وَالْمَأْمُومِيْنَ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُصَلِّيَ هَذِهِ الصَّلاةَ الْخَاصَّةَ فَلا بُدَّ لَهُ مِنْ مَزِيْدِ تَطْوِيْلٍ.

تَمَّتْ بِحَمْدِ اللهِ وَتَوْفِيْقِهِ

***